

كرامة الإنسان في القرآن



إنَّ التجوال بين الآيات البيّنات يكشف حقيقةً لا تقبل الإخفاء ولا الاختفاء، تتمثل في أنَّ (الإنسان) هو محور مخلوقات الله تعالى:

- أ- فهو الله (الخليفة) من قبل الله سبحانه، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة / 30).
- ب- وهو الحامل للأمانة العظمى (إِنَّزَّلْنَا عَرْضَ ذُنُوبِ الْأَمَانَةِ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب / 72).
- ت- وهو المسخر له ما في السماوات والأرض، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ) (لقمان / 20).
- ث- وهو المسبغ عليه النعم الكثيرة والخطيرة، قال تعالى: (وَاسْبِغْ عَلَىكُمْ نِعْمَةً طَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) (لقمان / 20).
- ج- وهو - أخيراً - المكرّم من بين المخلوقات والمفضّل عليها، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَيْرِ وَالْبَيْتِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء / 70).

والمنطق القرآني نفسه يكشف إلى ذلك، بل يؤكد، حقيقةً جليةً في نفسها، مفادها: أنَّ هذا (الإنسان) مخلوق مستخلف، مستأمن، منعم عليه، مكرّم. أي إنّه طرف في معادلة هو الأضعف فيها، بينما يشكل الطرف الآخر، الذي هو الله خالقه ومستخلفه ومستأمنه والمنعم عليه والمكرّم له، الطرف الأقوى. ومن ثمّ فإنّ العلاقة بينهما هي علاقة الحاكم/ الله من طرف، والمحكوم/ الإنسان من طرف آخر.

ومنطق الأشياء - كما لا يخفى على عاقلٍ - يفرض أن يكون لكلٍ من الطرفين حدودٌ، وأنَّ العلاقة بينهما ستكون محكومةً بالحقوق والواجبات من كلِّ طرف تجاه الآخر. مع بقاء قانون الفوقية للحاكم والدونية للمحكوم، دون أن يعني أن تلك الفوقية وهذه الدونية تسمح للحاكم أن يظلم وللمحكوم أن يظلم. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر/ 15).

فالإنسانية معنى سام في القرآن الكريم له متطلباته ومقتضياته، لا يمكن إدراكه لمن لم ينهل من القرآن نفسه (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (الأعراف/ 178).

توحيد □ تعالى:

يقرر القرآن الكريم مبدأ يعده أصلَ الأصول في معارفه التي تدور جميعها حوله، وهو (التوحيد) ويتفرع عنه عدد من الأصول الأخرى.

ونعني بـ(التوحيد):

أولاً: أنَّ الخالق لهذا الكون بكل ما فيه ومن فيه هو □ عزَّ اسمه، فهو يقرر حقيقة أنَّهُ سبحانه خلق السماوات والأرض بما يستوجب حمده، وبما لا يسمح إطلاقاً بالتمرد عليه، قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (الأنعام/ 1).

ولن يتنكر لهذه الحقيقة غيرُ المتمردين على المنطق الموضوعي وحقائق الكون التي لا يغفل عنها الباحثون عن الحق والحقيقة، وهم الذين يصلُّون بالتأمل والتفكير إلى أنَّ □ سبحانه ليس هو الخالق فحسب، بل إن فعله (الخلق) نابع من الحكمة والمصلحة، قال تعالى: (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) (العنكبوت/ 44).

أما غير المؤمنين وأولئك المتمردون المتبعون لشهواتهم التي تسافلت بهم عن مقام الإنسانية السامي فإنهم يكابرون ويكذبون (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) (النمل/ 14)، أيَّاً كانت الآياتُ بينةً والدلائلُ لائحةً (وَلَا تَلَّيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنزَى يُؤُفَكُونُ) (العنكبوت/ 61).

ولعل السر في ذلك التكذيب وتلك المكابرة من هؤلاء - كما يفيد من منطق القرآن وإشارات - أنهم يفتقدون العلم والبصيرة (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلِّلهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَالِمًا صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الأنعام/ 39). فهم، بسوء سلوكهم وخبث نياتهم، يصلُّون الطريق ويطمسون معالم النور في فطرتهم وعمق أنفسهم، حتى يصبحوا عمياً عن إدراك آيات بحجم السماوات والأرض، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَآخْتَلَفُ الْأَسْمَانَاتِ وَالْأَرْضِ وَالرُّومِ) (الروم/ 22).

وهذا الأصل، أعني الخالقية، لا يتنكر له أحدٌ، وإن اختلف هؤلاء وأولئك في من هو الخالق (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور/ 35)، ولذلك يجيهم القرآن بأبوية الواقع ومخلوقيته، بغير شك، من قبيل □ سبحانه، فقد بان الصبح لذي عينين، ولقد أبصر من استبصر، فقال عزَّ من قائل: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (لقمان/ 11).

ثم إنَّ القرآن يقرر أن خالقية □ هذه جاءت على الوجه المناسب لجلاله وجماله، فقال تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ) (السجدة/ 7)، وأن لا ثغرات في خلقه وفعله (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَيِّبَاتٍ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ

مقتضيات الخالقية:

يقرر، إلى ذلك، أن هذه الخالقية مقتضياتٍ ولوازمٍ، منها:

- 1- (العبودية) من قبل المخلوق والربوبية □ وجده لا شريك له، قال تعالى: (ذَلِكُمْ اللَّهُ الَّذِي بِيُكُومُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الأنعام/ 102).
- 2- (التوحيد)، فلا يجوز أن يُجعل له الندى والشريك، ولو قيل بذلك فليس إلا وهماً لا واقع موضوعي له، قال تعالى: (قُلْ أَتُذَكَّرُونَ لِمَ لَمْ يَكُفِّرُوا بِلِئَالِي ذِي خَلْقِ الْأَرْضِ فِي يَوْمِ مِيقَاتِهَا وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَسَدًا ذَلِكُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (فصلت/ 9)، وقال تعالى: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (لقمان/ 11)، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن تَأْتُوا فَاكُونَ) (فاطر/ 3).

ثانياً: أن □ سبحانه هو المالك لكل شيء:

القول بأن □ سبحانه هو المالك لكل شيء هو النتيجة المنطقية للحقيقة السابقة، فإن الخالق، بالمعنى القرآني، أعني الموجد من العدم بنحو مستقل، هو المالك، ومن ثم يُثار تساؤل استنكاريٍّ عن هذه الحقيقة بقوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (البقرة/ 107).

مالكية □ تعالى:

وفي آية أخرى تصيف إلى مالكية □ للملك المادي ملك السلطنة والسياسة...، فقال تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران/ 26).

ولم يُستثن من هذه الحقيقة الوجودية ومن مقتضى هذا الأصل أحدٌ من الناس ولا أمةٌ من الأمم، قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلِ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلِ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (المائدة/ 18).

ثالثاً: أن □ سبحانه العالم بكل شيء:

فقال تعالى في الربط بين الخلق والملك والعلم: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (الأنعام/ 73).

مما يترتب عليه رفع حس المسؤولية إلى أعلى مستوياته، فيما يرتبط بتنظيم العلاقة بين المخلوق والخالق، حيث لا يستثنى عمل من رقابته، ولا يسوغ التقصير في سره وعلانيته، فقال عز من قائل: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة/ 105)، وقال تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) (الرعد/ 9).

ولأنّه العالم بلا جهل، ولأنّه الذي لا يخفى عليه شيء (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) (الحاقة/ 18)، فليس من الصواب ولا من الجائز أن يجعل له الشريك، وفي ذلك جاء قوله سبحانه: (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (المؤمنون/ 92).

بل إنّ القرآن يقرر أنّ (الربوبية) تتوقف على العلم الذي يتيسر معه إيصال النفع وإلحاق الضرر بالآخر، قال تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنذِرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (يونس/ 18).

رابعاً: أنّّ تعالى المتصرف في كل شيء:

ف(الولاية)، وليست هي في المقام إلا التصرف، له وحده، قال تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ لَهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (البقرة/ 107).

وولايته هذه تشمل الصالحين فتزيدهم صلاحاً، والظالمين فتلحقهم بأعمالهم، قال تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة/ 257).

وليس لأحد غير الله، حيث له الولاية المطلقة، أن يتصرف، أو يدعي أن له حق التصرف في مخلوق من مخلوقات الله دون أن يفوض إليه ذلك، قال تعالى: (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ) (الكهف/ 26).

خامساً: أنّ المرجوع إليه ليس إلا الله سبحانه:

قال تعالى: (أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَصِيرُ الْأُمُورُ) (الشورى/ 53)، وقال تعالى: (إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (مريم/ 93). وقال تعالى - حكايةً ومدحاً لمنطق المؤمنين إذا أصابتهم مصيبة - حيث يقولون: (إِنَّمَا لِلَّهِ وَإِنَّمَا إِلَهُ الْوَاقِعُونَ) (البقرة/ 156).

وهذا الرجوع وتلك الصيرورة بآتيان في سياق بدئها وسيرها وغايتها النهائية وأن ذلك كله من الله، فعن الإنسان قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَيْ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (الإنشاق/ 6).

ومن لم يسلّم بهذه الحقائق فإنّه لا ينطلق من مسلمة علمية ولا من حقائق موضوعية، وفي ذلك يقول الحق تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) (لقمان/ 20).

وما نخلص إليه من كل هذا هو: أنّ الإنسان ليس (حرّاً) في مقابل (العبد)، بل هو (عبد) خاضع لسلطنة الله (تكويناً)، ومخاطب بسلطنته (تشريعاً).

المصدر: كتاب حول الحرية في المنطق القرآني/ دراسات قرآنية (1)